رمضان

شَهْرُ التَّوْبَةِ وَالْغُفْرَانِ

كلمة للشيخ
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
حفظه الله تعالى
أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية



قال العلاّمة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما في كتاب (مجالس شهر رمضان):

والتوبةُ التي أمر الله بها هي التوبةُ النصوحُ التي تشتمِلُ على شرائطِ التوبةِ وهي خمسةٌ:

الأوَّلُ: أن تكونَ خالِصةً لله عزّ وجلّ بأن يكونَ الباعِث لها حبَّ الله وتعظيمَه ورجاءَ ثوابِه والخوفَ من عقابِه، فلا يريدُ بها شيئاً من الدّنيا ولا تزَلُّفاً عند مخلوقٍ، فإن أراد هذا لم تقبلْ توبتُه لأنَّه لم يَتُبْ إلى الله وإنما تابَ إلى الغرضِ الّذِي قصدَه.

الثاني: أن يكونَ نادماً حزيناً على ما سلفَ من ذنبه يتمنَّى أنه لم يحصلْ منه لأجلِ أن يُحدثَ له ذلكَ الندمُ إنابةً إلى الله وانكساراً بينَ يديه ومَقْتاً لنفسه التي أمَرَتْه بالسوءِ فتكون توبتُه عن عقيدةٍ وبصيرةٍ.

الثالثُ: أنْ يُقْلِعَ عن المعصيةِ فوراً، فإن كانتِ المعصيةُ بفعلِ محرمٍ تَرَكَهُ في الحالِ، وإن كانتْ المعصيةُ بتركِ واجبٍ فَعَلَه في الحالِ إنْ كان مما يمكن قضاؤه كالزكاةِ والحجِّ، فلا تصحُّ التوبةُ مع الإصرارِ على المعصيةِ فلو قال: إنه تابَ من الرِّبا مثلاً وهو مستمرٌ على التعامُلِ به لم تصحَّ توبتُه ولم تكنْ هذه إلاّ نَوْعَ استهزاءٍ بالله وآياتِه لاتزيدُه مِنَ الله إلاّ بُعداً. ولو تابَ من تركِ الصلاةِ مع الجماعةِ وهو مستمرٌ على تركِها لم تصح توبتُه.

وإذا كانتِ المعصيةُ فيما يتعلقُ بحقوقِ الخلقِ لم تصحَّ التوبةُ منها حتى يتخلّصَ من تلك الحقوقِ، فإذا كانتْ معصيتُه بأخذِ مالٍ للغيرِ أو جحدِه لم تصح توبتُه حتى يؤدِّيَ المالَ إلى صاحبِه إن كان حيّاً أو إلى ورثتِه إن كان ميتاً، فإن لم يكنْ له ورثةٌ أدّاهُ إلى بيت المالِ، وإن كانَ لا يدري مَنْ صاحبُ المالِ تصدَّقَ به له والله سبحانَه يعلمُ بهِ، وإن كانتْ معصيتُه بغِيْبَةِ مسلم وجبَ أن يَسْتحلّهُ من ذلك إن كانَ قد علم بِغيبتِه إيَّاه أو خافَ أن يَعلَمَ بها وإلاّ استغفَرَ له وأثْنَى عليهِ بصفاتِه المحمودةِ في المجلسِ الّذي اغتابَه فيه فإن الحسناتِ يُذْهِبْن السيئاتِ.

وتصحُّ التوبةُ من ذنبٍ مَعَ الإصرارِ على غيرِه، لأنّ الأعمالَ تتبعَّضُ والإيمانَ يتفاضلُ، لكن لا يستحقّ الوصفُ المطلقَ للتوبةِ وما يستحقُّه التائبون على الإطلاقِ من الأوصافِ الحميدةِ والمنازلِ العاليةِ حتى يتوبَ إلى الله من جميع الذنوبِ.

الرابعُ: أن يعزمَ على أن لا يعودَ في المستقبل إلى المعصيةِ؛ لأنّ هذه ثمرةُ التوبةِ ودليلُ صِدْقِ صاحبِها. فإن قالَ: إنه تائبٌ وهو عازمٌ أو متردِّدٌ في فعلِ المعصيةِ يوماً مّا لم تصح توبتُه لأنّ هذه توبةٌ مُؤقّتةٌ يتحَيَّنُ فيها صاحبُها الْفُرَصَ المناسبةَ ولا تدل على كراهيتِه للمعصيةِ وفرارِه منها إلى طاعةِ الله عزَّ وجلَّ.

الخامسُ: أن لا تكونَ بَعْدَ انتهاءِ وقتِ قبولِ التوبةِ. فإن كانتْ بعد انتهاءِ وقتِ القبولِ لم تُقْبَلْ. وانتهاءُ وقتِ القبولِ نوعانِ. عامٌ لكلِّ أحدٍ وخاصٌ لكلِّ شخصٍ بنفسِه.

فأما العامُّ: فهو طلوعُ الشمسِ من مغربِها، فإذا طلعتْ الشمسُ من مغربِها لم تنفع التوبةُ. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: 158]

والمرادُ ببعضِ الآياتِ طلوعُ الشمس من مغربها فسَّرَها بذلك النبيُّ ﷺ، وعن عبدالله بن عَمْرو ابن العاصِ رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا تزال التَّوبَةُ تُقْبَلُ حَتَّى تطلعَ الشَّمسُ من مغربها، فإذا طلعتْ طُبِعَ على كلِّ قلبٍ بما فيهِ وكفَى الناسَ العملُ**» قال ابنُ كثيرٍ: حسنُ الإسنادِ. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ تابَ قبلَ أن تطلُعَ الشمس مِنْ مغربِها تاب الله عليه**»، رواه مسلم.

وأما الخاصُّ: فهو عندَ حضورِ الأجلِ فمتَى حضر أجلُ الإنسانِ وعاينَ الموتَ لم تنفعْه التوبةُ ولم تُقْبلْ منه. قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:18] وعن عبدالله بن عمرَ بن الْخَطَّابِ رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إن الله يَقْبَلُ تَوبةَ العبدِ ما لَمْ يُغرغِرْ**» يعني بِرُوحِه، رواه أحمدُ والترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ.

وَمَتَى صحَّتِ التوبةُ باجتماع شروطِها وقُبِلتْ محا الله بها ذَلِكَ الذَّنْبَ الّذِي تابَ منه وإنْ عَظُمَ. قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:35]. وهذه الآيةُ في التائبينَ المنيبينَ إلى ربِّهم المسلمين لَهُ. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 110]. فبادِرُوا رَحِمَكم الله أعمارَكم بالتوبةِ النصوحِ إلى ربِّكم قبل أن يفجأكم الموتُ فلا تستطِيعون الخلاص.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ هذا الموسم العظيم والشهر الكريم موسم رحمةٍ مهداة من رب العالمين للعباد لإقالة العثرات ومغفرة الزلات والتوبة عن الخطيئات والسيئات، فما أرحمه سبحانه وأحلمه هيأ لعباده كل ما يقربهم منه ويردهم إليه؛ فأمر عباده المؤمنين أمراً مطلقاً بالتوبة النصوح في كل حين وزمان ومكان ليحصل لهم تكفير السيئات وإقالة العثرات ورفع الدرجات والفوز بالجنات.

فقال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم 8]، وقال سبحانه ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور 31]، وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ» وفي رواية له «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(1)

بل الله يشتد فرحه بتوبة عبده إليه، روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»(2).

والواجب على المسلم أن يدرك أهمية التوبة وشدّة احتياجه إليها وأن يدرك كذلك خطر الذنوب وشدّة ضررها على أهلها في الدنيا والآخرة؛ فهي سبب لنزول المصائب والعقوبات والقوارع، قال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى 30]، وقال سبحانه ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور 63]، وقال سبحانه ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد 31].

وهل في الدنيا والآخرة شرٌّ و داءٌ إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟! فما الذي أغرق أهل الأرض جميعًا حتى علا الماء رؤوس الجبال؟ وما الذي سلط الريح على قوم هود حتى ألقتهم موتى كأنهم أعجاز نخل خاوية؟ وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم؟ وما الذي قلب قرية قوم لوط فجعل عاليها سافلها ثم أتبعهم حجارة فأبادتهم؟ وما الذي أغرق فرعون وقومه؟ وما الذي خسف بقارون وماله وأهله؟ وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيراً؟. إن السبب لهذا كله إنما هو الذنوب والمعاصي، قال تعالى ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت 40]، وقال سبحانه ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح 25].

قال ابن القيم رحمه الله في كلام عظيم له يوضح فيه شيئًا من آثار الذنوب الخطيرة وأضرارها العظيمة وعواقبها الوخيمة **«اقشعرّت الأرض وأظلمت السماء وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات وقلّت الخيرات وهزلت الوحوش وتكدرت الحياة من فسق الظلمة، بكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح. وهذا والله منذرٌ بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذنٌ بليلِ بلاءٍ قد ادلهمّ ظلامه، فاعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح، وكأنكم بالباب وقد أغلق وبالرهن وقد**

غَلِق وبالجناح وقد عَلِق ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء 227]. اشتر نفسك اليوم فإنَّ السوق قائمةٌ والثمن موجودٌ والبضائعَ رخيصةٌ، وسيأتي على تلك السوق والبضايع يومٌ لا تصل فيها إلى قليل ولا كثير ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[التغابن 9]، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾[الفرقان 27]»(3) اهـ.

هذا وإن كثيراً من الناس غلبته الشواغل والمغريات والملهيات وأصبحت عائقًا وحجر عثرة له عن التوبة والرجوع إلى الله؛ يصبح ويمسي وهو في ترفٍ وبذخ، وإسرافٍ وتبذير، ولعبٍ وسهر، ونومٍ وكسل، وظلمٍ وفجورٍ وطغيان؛ فشهر رمضان فرصة لأمثال هؤلاء الغافلين للتوبة النصوح والإقبال على الله، وإذا لم تتحرك النفس في هذا الموسم العظيم للتوبة فمتى تتحرك !! وإذا لم يقبِل العبد على الله في هذا الشهر المبارك فمتى يقبل!!

والله عز وجل قد فتح باب التوبة لعباده ووعد بالقبول، قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى 25]، وقال ﷺ «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(4)، فليغنم المفرطون المقصرون شهر الغفران بالتوبة النصوح مستوفين شروطها، وهي ثلاثة شروط إن فُقِد أحدها لم تصح التوبة

أولها أن يقلع عن المعصية إقلاعًا تامًا، وعلامته مفارقة الذنب فوراً.

الثاني الندم على فعلها، وعلامته طول الحزن على ما فات.

الثالث العزم أن لا يعود إلى المعصية أبداً، وعلامته التدارك لما فات وإصلاح ما هو آت.

فإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي زاد شرط رابع وهو أن يبرأ إلى الله من هذا الحق وذلك بردّه إلى صاحبه أو استحلاله منه.

اللهم إنا ظلمنا أنفسنا ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لنا مغفرة من عندك وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

(1) رواه مسلم (2702). (2) صحيح مسلم (2747). (3) الفوائد (ص 65-66). (4) صحيح مسلم (2759).